المحاضرة السادسة: إنسان جبل أرحود "إيغود" ودار السلطان

إنسان العصر الحجري القديم الأوسط بشمال إفريقيا

لقد عثر على مجموعة من البقايا العظمية تحمل مواصفات بشرية حديثة Homo sapiens morphologiquement modernes تعود للعصر الحجري القديم الأوسط، أي ما بين الفترة الممتدة من 100 ألف سنة إلى 25 ألف سنة، مع استمرار وجود الإنسان العاقل البدائي (Homo sapiens archaïque)، وقد صنفت تلك البقايا ضمن سلالة الانسان العاقل "نياندرتال"، ويحتمل بشكل كبير أن تكون هذه البقايا لصناع الحضارتين الموستيرية والعاترية، إذ تم العثور على بقايا بشرية في العديد من المواقع ببلاد المغرب، كموقع جبل أرحود، مغارة العاليا، تافوغالت بالمغرب، موقع بالقرب من وادي السعيدة بالجزائر، وجل هذه البقايا تحمل صفات الانسان النياندرتالي القريبة من الانسان العاقل، أو ما يمكن أن نسميه "الانسان النياندرتالي العاقل"، غير أن بقايا موقعي جبل أرحود ودار السلطان أخذت التميز الأنثروبولوجي بالمنطقة.

1/ إنسان جبل أرحود

سمي هذا النوع البشري بإنسان "نياندرتال" الذي تم الكشف عنه في ألمانيا، وقد عاش ما بين 200 ألف و35 ألف سنة، وهو أكثر تطورا من الانسان المنتصب القامة، وتعد فرنسا المستقر الأصلي لهذا النموذج البشري حسب الاكتشافات المعروفة، وفي شمال افريقيا لم يعثر على أية بقايا للنياندرتال، بينما استخرجت نماذج بشرية أخرى عاشت في المرحلة نفسها، وهي المعروفة في المغرب بـ "إنسان جبل أرحود" المكتشفة من موقع يبعد بحوالي 30 كلم جنوب شرق مدينة "آسفي"، أي جنوبي العاصمة الرباط

الشكل رقم: موقع جبل أرحود بالمغرب

كثير من الباحثين صنفوا انسان جبل أرحود ضمن انسان نياندرتال في البداية ومن بينهم كلود براهيمي، وإلى غاية سنة 1986م كان الكثير من المهتمين بالتطور البشري في المغرب، يذهبون إلى نفس الاعتقاد، منذ اكتشاف "إنسان جبل أرحود" سنة 1962م، وذلك من حيث تجويف الجمجمة الدماغي، فهو أقل صغرا في

النوعين، مع وجود حزام فوق الحاجبين وهو أقل ضخامة، والوجه بارز وليس مرتفع، وجبهته أكثر اعتدالا مقارنة بالنياندرتال الأوربي.

البقايا المكتشفة في جبل أرحود تتمثل في جمجمتين وجزء من فك سفلي لأفراد بالغين، وفك سفلي وعظم عضد لطفل، يتراوح تاريخ هذه البقايا ما بين 160 ألف سنة ق.ح و 106 ألف ق.ح، اعتبرت أقدم مخلفات بشرية للإنسان العاقل في العالم والمعروف بـ Homo Sapiens، رفقة بقايا عظمية حيوانية وأدوات حجرية وتميزت بمناخ حار ورطب وبخيرات كثيرة.

إلا أن الدراسات والتحاليل التي تعرضت لها هذه البقايا بمتحف "التاريخ الطبيعي بباريس" أبرزت أن انسان جبل أرحود لا علاقة له بالنياندرتال، سواء على المستوى الفيزيولوجي أو على الصعيد الاجتماعي، إذ أن إنسان جبل أرحود يجمع بين سمات عتيقة توجد في الانسان المنتصب القامة وصفات حديثة نجدها في الانسان العاقل، أي أنه يتوسط النوعين، وبالتالي يمكن اعتباره صلة وصل بينهما. كما برهن الباحث هوبلان من خلال الدراسات التي قام بها أن هناك فروقات تنفي هذا الانتساب، حيث تظهر جمجمتا جبل أرحود جملة من الصفات البدائية شبيهة بصفات الإنسان الأطلسي الموريطاني، كما تظهر صفات متطورة تشبه البشريات اللاحقة.

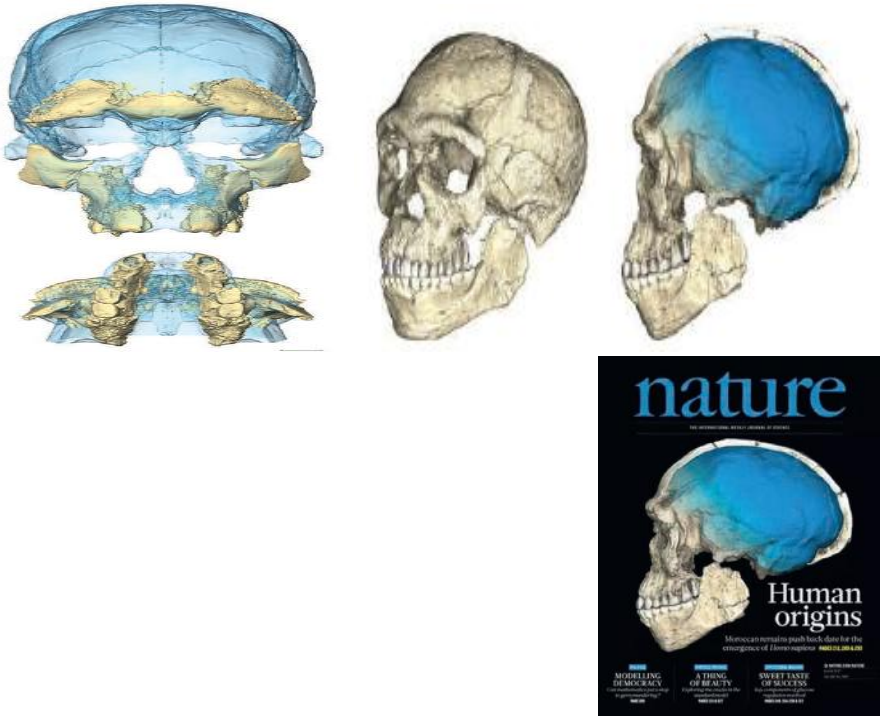

يزول هذا الخلاف بعد أن عثر في صيف 2017م في موقع جبل أرحود على بقايا بشرية لإنسان تؤرخ بـ300 ألف سنة، وهو يزيد ب 100 ألف سنة عن عمر أقدم إنسان عاقل مكتشف بموقع "امو" بإثيوبيا شرق إفريقيا، والذي يؤرخ بـ 195 ألف سنة، وهو يشبه في كثير من خصائصه الإنسان الحالي، وتم

تناقل هذا الخير في عدة مجلات علمية عالمية مثل مجلة علوم "Science" و"Nature"، وحسب دانيال ريختر Richter فإن: "إفريقيا، تُعد المواقع المؤرخة بدقة لهذه الفترة نادرة للغاية، ومن حسن الحظ أن موقع جبل إيغود قد حفظ هذا العدد الكبير من قطع الصوان المحروقة، لقد أتاح لنا ذلك استخدام طريقة التألق الحراري (Thermoluminescence) في وضع تسلسل زمني متماسك لكل من البقايا البشرية والطبقات التي تعلوه

مميزات انسان جبل أرحود: تظهر الخصائص التشريحية لجمجمة انسان جبل أرحود فسيفساء من الصفات البدائية والصفات المتطورة وهي كما يلي:

- يتميز بجمجمة قصيرة ومستديرة.
- حجم مخه حوالي 1500 سم^3، وهو أدنى من حجم جمجمة مثيله في أوربا.
- محاجر العيون كبيرة ومستديرة ومتباعدة.
- الفك الأعلى متقدم.
- فص الدماغ الخلفي يتميز بالانبساط والاستطالة.
- وجود بروز عظمي سميك يحدد منطقة التحام عضلات القفا، وبجبهة أكثر اعتدال إذا ما قورنت بجبهة انسان نياندرتال في أوربا.
- حزام فوق الحاجبين ليس ضخما، وصاقورة الجمجمة مسطحة، والتجاويف ليست متطورة.
- الأسنان تتميز بالضخامة وبوجه عريض ومنخفض، وتمايز الذقن.

وبذلك استنادا إلى الخصائص التشريحية لإنسان جبل أرحود فهو يكتسي أهمية كبيرة، ذلك أنه يكمل سلسلة المتحجرات البشرية من إنسان الأطلس إلى الانسان العاقل، فهو من جهة يشبه انسان الأطلس من حيث خشونة وكبر البروز فوق الحاجبين وضخامة الأسنان، بالإضافة إلى وجه عريض ومنخفض، في حين يشبه الصفات المتطورة لبعض صفات البشريات اللاحقة كغياب بروز الفك وتمايز الذقن ومورفولوجية مميزة للعظم القذالي والجبهي، وهو يمثل الأساس الأنثروبولوجي لشمال إفريقيا خلال ما قبل التاريخ، وفي هذا الشأن يرى الباحث ج. ل. هايم المختص في دراسة انسان نياندرتال وأشباهه أن المميزات الخاصة لإنسان جبل أرحود تعبر عن استقلالية التطور للإنسان الحفري في هذه المنطقة، وهي تبعد احتمال تطوره عن طريق عنصر أصله من أوربا، أو منطقة افريقية أخرى، بل أنه تطور محليا[1].

[1] Ibid, pp 136-127.

أما فيما يخص نوعية الصناعة المكتشفة في الموقع بالموازاة مع البقايا العظمية فإن شانون ماكفيرون (Shannon McPherron) يرى أن: "الأدوات الحجرية لجبل أرحود تشبه إلى حد كبير الأدوات المكتشفة في رواسب ذات عمر مماثل في شرق إفريقيا وجنوبها، ومن المرجح جدا أن الابتكارات التقنية التي تميز عصر الحجر الأوسط كانت مرتبطة بـ ظهور الإنسان العاقل، إن انتشار هذا النوع عبر إفريقيا قبل نحو 300 ألف سنة هو نتيجة لتحولات بيولوجية وسلوكية متزامنة"

2/ انسان دار السلطان 2: تم الكشف في موقع دار السلطان 2 عن جمجمة غير مكتملة تضم العظم الجبهي، ومعظم العظمين الجداريين، والجزء الأيسر من الوجه، ونصف الفك السفلي الأيسر الذي احتفظ بثلاثة أضراس، والضاحك الثاني، وجزءٍ من الناب، أمّا الفك العلوي فلم يُحفظ منه سوى جزءٍ من الضرس الأول والضرس الثاني الذي يبدو شديد التآكل، وفك سفلي آخر يفتقر إلى فروعه الصاعدة، لكنه احتفظ بالأضراس، والأنياب، والضاحك الأول، والقاطع الجانبي الأيمن، وقد ارتبط بهذه القطعة جزءٌ من الفك العلوي، فضلا قبّة جمجمة (calvaria) غير مكتملة وتعود هذه الجمجمة إلى رجل يبلغ نحو خمسين عامًا، وهي قوية البنية وكبيرة الحجم، أما الوجه فقصير وعريض وتظهر عليه نتوءات عظمية واضحة المعالم.

تعتبر البقايا البشرية لدار السلطان "2" مرجعا آخر لوصف خصائص هذا الانسان -العاقل- نظرا لتوفرها على معظم أجزاء الجمجمة، وهي تتميز بالضخامة والخشونة مع وجه منخفض وعريض ذو ملامح بارزة، كما تشتمل على حاجبين عريضين مستطيلي الشكل ومنخفضين تعلوهما أقواس حاجبية قوقة وبارزة ووجهه أطول، وحافة الأنف والجبهة الواقعة تحت منتصف المحاجر وكذلك فكوك متقاطعة، كما يتميز بشساعة عرض الأنف، أما العينان محاطتان بمدارات واسعة ومنخفضة الشكل، ذات هيئة مستطيلة، يعلوها قوس حاجبي بارز وقوي لا يشكّل حدبة مستقيمة ومتصلة، بل ينحني ويضعف تدريجيًا عند مستوى المنطقة الجبهية بين الحاجبين، كما أن زاوية التقاء العظم الوجني مع العظم الفكي العلوي هي من السمات التي تميز هذه الجمجمة عن جماجم النياندرتاليين، أما الفتحة الأنفية فهي ذات شكل كمثري وذات حافة سفلية حادة، ويُلاحظ أن صفيحة العظم الصدغي منخفضة وممدودة.

أما الفك السفلي فهو شديد المتانة، ذو جسم سميك ومنخفض نسبيًا عند مستوى الضرس الثالث، بينما يزداد ارتفاعه في منطقة الناب، ويُلاحظ أن الثقب الذقني عريض وعميق، ويقع تقريبًا تحت الضاحك الثاني وفي منتصف ارتفاع جسم الفك السفلي، في حين الفرع الصاعد فهو عريض ومرتفع، وتظهر بوضوح آثار ارتكاز العضلات، وخاصةً عضلة الجناحية الداخلية، ولا يُظهر زاوية الفك أي انفتاح خارجي كما هو الحال لدى الإنسان الإيبيرو-مغربيين.

انسان دار السلطان ذو مواصفات قديمة وأكثر خشونة، وله مقاسات عمودية أكبر، وأقواس حواجب أكثر بروزا، ويتقاسم مع الانسان المشتوي خصوصيات كثيرة، ويشكل إنسان دار السلطان همزة وصل بين انسان جبل أرحود والانسان المشتوي -الذي سندرسه لاحقا-، في حين اعتبره فِرِمباخ (Ferembach)، نوع من الانسان العاقل العاقل Homo sapiens sapiens فهو لا يختلف عن المشتويين إلا من حيث تضخيم بعض السمات مثل: الأبعاد العرضية للجمجمة، وبروز الأقواس الحاجبية، ويُظهر هذا الإنسان مظهراً أكثر بدائية وأشدّ متانة من الناحية الشكلية والقياسية ولذلك، لا يوجد ما يمنع من اعتباره سلفا محتملا للإيبيرومغربيين.

بموقع الحرحورة تمكَّنت عملية تنقيب طويلة أُجريت عام 1977 تحت إشراف الفرقة الأثرية في الرباط من كشف فك سفلي مجزأ، وتتميز ملامحه بالمتانة وقوة بنيته، ارتفاع حجم الفك، مع بروز الذقن، أما الأسنان فهي كبيرة الحجم جدًا

وفي الدراسة التي قدمتها الباحثة باهرة تشير إلى أنه تم الكشف عن بقايا بشرية أخرى تعود للعصر الحجري القديم الأوسط في موقع هوافتيح بليبيا، وهي عبارة عن فكين سفليين لفرد بالغ وآخر مراهق، وتتميز هذه الفكوك بصفات بدائية وأخرى متطورة مثل بقايا جبل أرحود، وقد صنفت ضمن مجموعة أشباه نياندرتال في البداية ثم حولت إلى مجموعة الانسان العاقل العتيق، واكتشفت جل البقايا اللاحقة في منطقة تمارة بالقرب من الرباط، وهي تنتمي لنفس المجموعة البشرية، ويتعلق الأمر بفك سفلي اكتشف في عام 1956 ويشبه تلك الفكوك الموجودة في دار السُلطان وكهف الحرحورة، إذ تميز هذا الفك بالمتانة وباستقامة الفجوة الأمامية وكبر حجم الأسنان، نسبه H.V. Vallois في البداية إلى انسان الأطلس الموريطاني، في حين ينسبه ديبيناث إلى العاقل، خاصة بعد اكتشاف روش وتيكسير عام 1975 بقايا جمجمة تتكون من عظم مؤخرة الجمجمة، وجزء من العظام الجدارية، وقطعة من الجبهة اليمنى، والتي لا تتصل بالقطع الأخرى لكنها يبدو أنها تعود لنفس الفرد.

أما فيما يخص البقايا البشرية المكتشفة في مغارة العالية، فهي تُعَدّ أقدم البقايا البشرية المكتشفة في المنطقة، وهي كهف يقع على بُعد نحو 15 كلم جنوب مدينة طنجة، وقد نقّب فيه العالِم كُون (Coon) سنة 1939، حيث اكتشف شظايا عظمية بشرية، ويتعلق الأمر ببقايا من جزء أوسطي من الفك العلوي الأيسر، يحتوي على الضرس اللبني الرابع، والناب، والضرس الثالث الدائم، وتم تأريخ عمر تلك البقايا بحوالي 30 ألف سنة فقط باستخدام طريقة الكربون المشع على فحمٍ، ومن الجدير بالذكر أنه رغم وجود تشابه معيّن بين الرواسب في مغارة العليا ودار السلطان 2 والحَرّورة 1، إلا أنه من الصعب حاليًا تحديد ترابطٍ زمنيٍ

دقيقٍ بين مغارة العليا ودار السلطان 5، مما دفع سينشيرِك (Senyiurek) بنسب هذه البقايا، استنادًا إلى شكل الفك العلوي، إلى نوع Homo sapiens neanderthalensis[2].

فيما يخص أصول هذا النوع البشري فقد انقسم الباحثون بين الطرح الخارجي وبين الأصل المحلي؛ فالرأي الأول اقترح الأصل الواحد الإفريقي، بمعنى أن الانسان العاقل يعود إلى أصل واحد ظهر في شرق إفريقيا في حوالي 20 ألف سنة وانتشر بعدها في مختلف مناطق العالم، أما الرأي الثاني فيقر بالأصول المتعددة، حيث ترى انبثاق سلالات متعددة من الانسان العاقل انطلاقا من سلالات الانسان المعتدل المحلية، وبالتالي يكون انسان جبل أرحود منبثقا من الانسان الأطلسي الحفري، ومن المميزات الخاصة لأشباه نياندرتال بشمال إفريقيا هو استقلالية التطور للإنسان الحفري في هذه المنطقة، ولا يبدو عليه أنه تطور عن نظيره الأوربي أو المشرقي أو من منطقة افريقي أخرى، بل انه تطور تطورا محليا، ولا نستبعد أن يكون منحدرا من الأطلسي الموريطاني وقد يكون امتدادا لإنسان حضارة عين لحنش.

[2] Coon (C.S.), Fossil Man in Tangier. Papers of the Peabody Museum, In Senytirek M.S., 1940), 13, 1940, pp vii-viii.; Debénath (A), op-cit, p 135.